روضة الحكايات!!

(٤)

موسوعة علميّة متنقلة!!

الدكتور

محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

في الطريق إلىٰ السوق

في مساءِ هذا اليوم عندَما كانَ أفرادُ عائلةِ (أبي عدنان) مُتَحلِّقينَ حولَ مائدةِ طعامِ العَشاء ، نظرَ (أبو عدنان) نحوَ ابنِه (علام) وقال له : بعدَ قليلٍ سأذهبُ إلىٰ السوق ، من أجلِ شراءِ بعضِ الأغراض ، فهل تَرغبُ بالذهابِ معي؟

وما هي إلا لحظاتٌ حتى كان (علام) قد غسل يديه ووجهَه ، ولَبِسَ ثيابَه الجديدةَ ، وسرّحَ شعرَه ، ووقفَ إلىٰ جِوارِ باب الصالون وقال : هيّا يا والدي ، فأنا جاهزٌ ، وعلينا ألا نتأخّرَ في الذهاب وفي الإياب .

ابتسمَ الوالدُ وقال : ولماذا أنتَ علىٰ عَجَلَةٍ من

أمرِكَ ، ولماذا علينا ألا نتأخَّرَ ، وما الذي يَشْغَلُكَ يا رجلَ الأعمال!!

ضحكَ الجميعُ وهم ينظرون إلىٰ (علام) ، ثم قالتْ أختُه الكبيرةُ (سكينة) : معك الحقّ ، فأنتَ مستعجلٌ بسبب اقترابِ برنامجكِ التلفزيونيِّ المفضَّلِ (طرائف... وعجائب) .

هزّ (علام) رأسَه ثم قال : نعم ، وهل هناك أَجْمَلُ من أمثالِ تلكَ البرامج؟ ففيها فوائدُ كثيرةٌ ، منها أنّ الإنسانَ يطّلع علىٰ ما في هذا الكونِ من عَجائبَ... وغَرائبَ وطَرائفَ ، والحكمةُ ضالّةُ المؤمنِ ، أنّىٰ وجدَها فهو أحقُّ بها...

و... خرجَ (علام) مع والدِه باتّجاه السّوق ، وكالعادةِ راحَ (علام) يسألُ والدَه عن كلِّ الأمورِ التي يَراها ، والوالدُ يُجيبُه بكلِّ هدوء ، فهو يَعلمُ أنّ الإنسان في مراحِلِ عُمرِه الأولىٰ يريدُ أن يتعرّف

إلىٰ كلِّ ما حولَه ، ولذلك يسألُ كثيراً ، ويَبحثُ كثيراً... .

ولما وصلا إلىٰ الساحةِ الرئيسيةِ في السوقِ ، رفعَ (علام) رأسَه فرأىٰ الساعةَ الكبيرةَ المثبتةَ علىٰ عمودٍ رخاميٍّ طويلٍ ، ولما دقّق النظرَ صاح : لقد تأخّرنا عن البرنامج المفضَّل... ، هيّا يا والدي أرجوكَ أَسْرِعْ... ، رَدَّدَ (أبو عدنان) بعضَ الكلمات ، حَفِظَ منها (علام) قوله : لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم...

وركبا في سيارةٍ صغيرة وانطلَقا باتجاهِ البيت ، وفي الطريقِ كان سائقُ السيارةِ يَستمعُ إلىٰ إحدىٰ الإذاعاتِ ، وذلك عَبْرَ جِهازِ الراديو... وكان برنامجاً شَيِّقاً يحكي عن أحدِ علماءِ الأمة العربية...

ومما قاله المذيع : وبلغتْ مُصَنَّفاتُه مئتين وخمسين مصنّفاً!!

فقال (أبو عدنان) للسائقِ : مَنْ هو هذا العالمُ العظيمُ الذي يتحدّث عنه هذا البرنامج الإذاعي؟

فأجابه : إنه المربّي والعلامة البليغ (ابنُ الجوزي) رحمَه اللهُ تعالىٰ.. هزّ (أبو عدنان) رأسَه وقال : هؤلاءِ همُ أجدادُنا ، لقد ضحَّوا بالغالي والنفيسِ من أجلِ نَشْرِ العلمِ ، وصَدَقوا في ذلك مع الله ، فَخَلَّدَ اللهُ أعمالَهم وآثارَهم ، وكان ما كان...

* * *

سعيٌ... وكفاحٌ... وتعب!!

وفي البيتِ ، جلسَ (علام) أمامَ التلفازِ ، وراح يُتابعُ البرنامجَ بكلِّ شَغَفٍ واهتمامٍ ، بينما دخلَ (أبو عدنان) إلىٰ غرفةِ ابنه (سليمان) واقترحَ عليه أن يَبْحَثَ في تَرْجمةِ (ابن الجوزي) ويُلخِّص ذلك في محاضرةٍ في الأسابيعِ القادمة ، كما فعلَ بعضُ أصدقائه..

وفي صبيحةِ اليومِ الثاني انطلقَ (سليمان) إلىٰ المكتبةِ العامّةِ ، واستغرقَ في التفتيشِ والبحثِ ضمن المَراجعِ والمَصادرِ التي تَبحثُ في تَرجمةِ (ابن الجوزي)...

وكان هذا الملخَّص المُفيدَ :

في السنةِ العاشرةِ بعد المئة الخامسةِ للهجرة كان مَولِدُ (ابن الجوزي) ، وذلك في بغدادَ ، وما إنْ بلغَ الثالثةَ من العمرِ حتىٰ مات أبوه ، فَكَفِلَتْهُ عمّتُه ، وأخذتْه إلىٰ العلماء المعروفين ، فقرأَ عليهم القرآنَ الكريم ، ثم حَفِظَ كتباً كثيرة ، منها :

صحيحُ البخاري ، وصحيحُ مسلم ، ومُسْنَدُ الإمامِ أحمد ، والطبقاتُ الكبرىٰ لابن سَعْدٍ و... !! وأَحْسَنَ (ابنُ الجوزي) استغلالَ الوقت ، فلم يُضيِّعْ منه شيئاً ، ولم يَصْحَبْ رِفاقَ السُّوء ، ولم يترُكْ علماً سمع به إلا حاولَ تحصيلَه .

والذي ساعدَه في ذلك زُهْدُه في أمورِ الدنيا ، فقد أَقْنَعَ نفسَه منذ الصِّغَرِ أنّ الله لم يَخلُقِ البشرَ ليتفنّنوا في الطعامِ والشرابِ ، واللباسِ والمَسْكَنِ و... ، وإنما خَلَقَهُمْ لمهمّةٍ أخرىٰ ـ وهي الأهمّ ـ وهي

معرفته سبحانه ، والانقيادُ إلىٰ أوامرِه ، والابتعادُ عن نواهيه ، مصداقُ ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٦ـ٥٨] .

إضافةً إلىٰ نعمةِ سرعةِ الحِفْظِ وقوّةِ الذاكرة ، وكذلك كثرةُ لجوئه إلىٰ الله ، وقد ورد في ترجمةِ حياتِه أنه كان كثيراً ما يتوجَّهُ إلىٰ اللهِ بالدعاء قائلاً : (إلهي! لا تعذِّبْ لساناً يُخبِرُ عنك ، ولا عَيناً تنظرُ إلىٰ علومٍ تدلّ عليك ، ولا قَدَماً تمشي إلى خدمتِكَ ، ولا يداً تَكتبُ حديثَ رسولِكَ ، فَبِعزَّتِكَ لا تُدْخِلْني النارَ ، فقد علمَ أهلُها أني كنتُ أَذُبُّ عن دينِكَ...) .

والعَجَبُ الذي لا ينتهي أنّ (ابنَ الجوزي) تلقّىٰ العلومَ عن كثيرٍ من الشيوخ ، ذَكَرَ بعضَهُم في

كتبِه فبلَغَ عددُهم أكثرَ من (تسعين) رجلاً وامرأة!!

كـلّ ذلـك وابـنُ الجـوزي قـد عـاش عَصْـراً متناقِضاً ، فمِنْ جانبٍ أولَ عاشَ بعضُ الناسِ عيشةَ القصورِ والترَفِ و... ، بينما عاشَ البعضُ الآخَرُ عِيشةَ الفقرِ والزهدِ و... ، كذلك فقد اجتاحَ العالمَ الإسـلامـيَّ الغـزوُ الصليبـيُّ وفَعَـلَ مـن المَجـازِرِ والجرائمِ الشيءَ الكثير ، ثم كان الغزوُ المغوليُّ والذي أدّىٰ إلىٰ سقوطِ بغداد عاصمةِ الخلافةِ العباسية ، و..!!

* * *

موسوعة متنقّلة!!

أما المصادرُ المعرفيةُ التي استفادَ منها (ابنُ الجوزي) فكثيرةٌ ، أهمّها : القرآنُ الكريم ، والأحاديثُ النبوية ، والسيرةُ العَطِرَةُ ، وسِيرةُ الصحابة والتابعين ، ولذلك فقد كَتَبَ عدةَ تراجِمَ ، منها : مَناقِبُ عمر بن الخطاب ، وصِفَةُ الصفوة ، وسيرة عمرَ بن عبد العزيز ، وترجمةُ حياةِ ابن حنبل ، وكتابةٌ مبسَّطةٌ عن الحسنِ البَصْريّ و... ، وتوسّع في مطالعتِه إلىٰ أنْ اطّلعَ علىٰ كتبِ اليونان والرومان والفرس ، وقرأ بعضَ كُتُبِ الصوفيةِ ، حتىٰ كَتَبَ الحكاياتِ والقصصَ ، لذلك نراه يَنقلُ في كتبِه بعض ما وردَ في كتابِ (كليلة ودمنة) ،

والمهمّ عنده أن يكونَ في ذلك عِبَرٌ وعِظاتٌ وفائدة ، ومن الحكايات التي نقلها هذه الحكاية التي تُروىٰ علىٰ ألسنةِ الحيوان :

(... مَرِضَ الأسدُ فعادَهُ جَميعُ السِّباع ، فتخلّف عنه أبو الحصين الثعلبُ ، فقام الذئبُ فقال للأسد : يا سَيِّدَ السِّباع ، ألا ترىٰ أبا الحصين الثعلب لم يَعِدْكَ فِيْمَنْ عادَكَ استِخْفافاً بحَقِّكَ؟!

قال له الأسدُ : صَدَقْتَ ، فذكِّرني إذا حَضَرَ..

وبلغَ ذلكَ الثعلبَ ، فلما اجتمعوا ، قال الذئبُ : يا سيّدَ السّباعِ ، هذا أبو الحصين قد حَضَر .

قال له الأسدُ : أبا الحصين .

فأجابه : لبَّيكَ يا سَيِّدَ السباع .

قال : ويلَكَ ، مَرِضتُ فلم تَعُدْني استِخْفافاً بحَقّي أم نَسِيْتَ؟

قال : لا ، ولكنْ بلغَني أنكَ شديدُ الوَجَعِ ،

فجعلتُ أَطْلبُ لك الدواءَ ، فأُخبِرْتُ أن دواءَك خَرْزَةٌ في فَخِذِ الذئب .

قال : فضربَ الأسدُ فَخِذَ الذئبِ ضَربةً مؤلمة ، فتركَهُ الثعلبُ الماكرُ كذلك وانسلَّ ، فقام الذئبُ خائباً ، فمرَّ به الثعلبُ بعد ساعة والدِّماءُ تَسيلُ منه ، فناداه الثعلب : يا صاحِبَ الخفّ الأحمر ـ يعني الدماء ـ إذا جلستَ عند الملوكِ فانظرْ ماذا يَخرجُ من رأسِك!!) .

* * *

في رحاب علومه... ومواعظه

إضافةً إلىٰ تصانيفه وكتبه ، فقد اشتُهِرَ (ابن الجوزي) بالمَجالسِ الوَعْظيةِ التي كان يَحْضُرُها آلافُ البشر ، ويبدو أنه كانَ شديدَ الإخلاصِ في القَولِ ، حتىٰ إن غالبيةَ الحاضرين كان يَغْلِبُهُمُ البكاءُ ، فمن أحاديثِه الوَعْظيةِ :

... إخـوانـي! تفكّـروا فـي الحَشـرِ والمَعـادِ ، وتَذكّروا حين تَقوم الأشهادُ ، إنّ في القيامةِ لَحَسَـراتٍ ، وإنّ فـي الحَشْـر لَـزَفَـراتٍ ، وإنّ عنـد الصراط لَعَثَراتٍ ، وإنّ عند المِيزانِ لعَبَراتٍ ، وإنّ الظلـمَ يـومئـذٍ لَظُلُمـاتٌ ، والكتـبُ تحتـوي علـى النَّظَرات ، وإنّ الحسرةَ العظمىٰ عند السيئات ،

فريقٌ في الجنة يَرْتَقون الجنّات ، وفريقٌ في السّعيرِ يَهْبِطون الدَّرَكات ، وما بينَك وبينَ هذا إلا أن يُقال : فلانٌ مات .

وتقولُ : ربِّ ارجعوني .

فيُقالُ : فات!!

وأما أهمُّ علومِه فقد بَثَّها في مُصَنّفاتِه الكثيرةِ ، ومنهـا : (زادُ المَسيـرِ فـي علـم التفسيـر) و(المُنْتَظَمُ في تاريخِ الأُمَمِ والملوك) و(صِفَةُ الصَّفْـوة) و(ذَمّ الهـوىٰ) و(صَيْـدُ الخـاطـر) و(الـوفـا بـأحـوالِ المصطفـىٰ ﷺ) و(تَلْبيـسُ إبليس) وغيرهم..

أَجَلْ! لقد بَلَغَ (ابنُ الجوزي) مكانةً علميةً مَرْموقةً ، فهو مُؤَرِّخٌ ، وواعظٌ ، ومحدّثٌ ، ومفسّرٌ ، وكاتبٌ كبير ، وناقدٌ متفنّن ، و...

وجزاء الضيفِ إحسانٌ إليه

وكالعادةِ فقد كثُر حُسّادُه ، فاختلَقوا الأكاذيبَ عليه ، مما أدّىٰ إلىٰ حَبْسِه زُهاءَ خمسِ سنواتٍ وكان قد أَصبحَ كبيراً في السنّ ، وقُبيلَ وفاتِه أُطْلِقَ سَراحُه ، فما لَبِثَ أنْ مات ، وذلك في سنة (٥٩٧هـ) ، وكان قد أوصىٰ أن يُكْتَبَ علىٰ قبرِه :

يا كثيرَ العفوِ عَمَّنْ كثُرَ الذنبُ لديه
جاءكَ المُذْنِبُ يرجو الصَّفْحَ عن جُرْمِ يديهِ
أنا ضيفٌ وجزاءُ الضَّيفِ إحسانٌ إليهِ

* * *